(الوعي الشقي) اليسار الاروبي والصهيونية

عبـد الكبيـر الخطيبي

اذا كان علي ان اعطي تعريفا موجزا للصهيونية لقلت انها عودة تهكمية للوعي الشقي . ذلك أن الوعي الشقي ، كما يحدده (ج. فال) في حديثه عـن هيجل هو قبل كل شيء ، « وعي بالازدواجية والتناقض » .

وبما أنه وعي ممزق منفصل منقسم على نفسه فهو ينحل الى تناقضات لا متناهية . وهذا الانقسام الدائم المؤلم الذي يقوم على جدليـة الخطيئـة والالم ، والعذاب والاختيار ، سرعان ما يجد تبريره ـ كما هو الشأن عنـد الديانات الابراهيمية ـ في تجاوز وخارج مطلقين ، في اله لا متناه ، يعكس هو الآخر هذا الانفصال بشكل لا نهائي .

انه تجاوز مطلق يلقى بالمومن في غياب مزدوج : فهو يدفنه في الماضي مثلما يرمي به نحو المستقبل ، ذلك أن الوعد بحياة ابدية عندما يضالع على مستوى الفكر بين الايمان واليأس ، فانه يجعل الشقي غريبا عـن ذاتـه ، خارجا عن الزمن . والحال أن الحنين الى الارض المفقودة قد أوهـم الوعـي اليهودي بنهاية هذا الشقاء وانقضاء ذلك المنفى ، واختفاء تلك الفوارق التي لا تطاق ، والتي تجعل الشقي يعيش التاريخ « مندفعا نحو الامام مجرورا الى خلف » على حد تعبير (كيير كارد) ، واعني في انفصال مطلق عن الوجـود التاريـخـي .

لسنا نحن الذين ننعت الصهيونية ، على هذا النحو ، بأنهـا حركـة تبشيرية معكوسة . أنه (دوق باريز) أحد المتشبعين بالصهيونية هو الذي كتب : « ان الامر لا يتعلق بشرود ذهني ، ولا هلوسات تاريخية ، وانما بوقائع حقيقية . انه التاريخ مقلوبا مثلما كانت الافلام الاولى لهذا القـرن تعرض السباح وهو ينبعث من قلب الماء ورجله في الهواء ليصعد المنحـدر الموهوم ويستعيد مكانه فوق المغطس » .

سنتبين بتفصيل كيف تقلب الايديولوجيـة الصهيونيـة (بمختلف

أشكالها) هاته المفاهيم الاساسية كمفهوم الارض الموعودة ، ومفهوم الاصل والمكان المركزي المحوري ، مثل هاته المفاهيم التي يعسر على الجدل التاريخي العيني أن يتمثلها ، فهذا الجدل كما نعلم يزعزع هاته المفاهيم وهو يستعملها كل مرة بشكل خاص . لسنا نريد اذن ان نرد الصهيونية الى مجرد وهم عام من شأنه ان يرمي بالوعي في متاهات دائمة ، فقد يتبنى الوعي الشقي هذا الموقف بسهولة . علينا اذن ان ننتقده ونضعه في أزمة بالنسبة للصراعات الايديولوجية الراهنة . فهذا هو الذي سيطبع **التهكم** ويحدده ، لا من حيث هو حركة استسلام وخنوع لا متناه (مثلما يرتئي كيير كارد) وانما من حيث هو عنف يتجلى في الجدال ويكمن بين النصوص يمكننا ان نتحكم بشكل تدريجي في دائرة الشقاء الميتافيزيقية ونحيط بها .

ذلك ان للصهيونية من حيث هي واقعة تاريخية ومن حيث هي حديث، خصوصياتها واصالتها ، تلك الاصالة التي لا تكفينا ان نكتب اسم اسرائيل بين مزدوجتين كي نقضي عليها . ونحن نريد هنا أن نخضع الايديولوجية الصهيونية للمخاض ، وذلك بتحليل كتابتها المتوترة ، واحالاتها الدائمة . اننا نرمي أساسا الى مناقشة مفاهيم الاصل والمكان المختار .

لنعد الى مفهوم الشقاء . فهو يتولد عن الزوج شعب معذب / شعب مختار ، فهذا الشعب يردد : اننا ، نحن اليهود ، حكم علينا بأن نكون شعب الله المختار ، وان شقاءنا يكمن في اختيارنا ، واختيارنا هو انفصالنا المطلق . وقيام دولة اسرائيل نهاية لهذا الشقاء . (ليس من شك في ان هاته النزعة الوجودية التي تقول بانفصال الوعي ستضايق جدل سارتر اشد المضايقة) . فهذا الشعب الذي أراد لنفسه ان يكون فوق التاريخ لا يمكنه ان يخترق التغياب المزدوج (غياب الذكرى والامل) الا عن طريق قلب ساخر للوعي الشقي : حيث تنقلب نهاية منفى الشعب اليهودي الى منفى الآخر ، ويصبح امتلاك الارض الموعودة اختلاسا للآخر . ويكون تأسيس الدولة قضاء على شعب . فبعد الابادة التي قامت بها النازية للقضاء على العنصر اليهودي يجيء القضاء على الشعب الفلسطيني ، وبعد الفصام المتبعثر يحل فصام تسهر عليه دولة وينظم وفق العقيدة الصهيونية . واخيرا فان هذا التأكيد الحاد على الوجود التاريخي يقابله الاصرار على كبت تاريخ الآخر واغفاله . وليس من شك في ان التاريخ قد تغير منذ الوعد الذي عقده الله اليهود مع شعبه . فها هي 4000 سنة قد مضت . غير ان اسرائيل والصهيونية ما زالا يعيشان « مندفعين الى الامام مجرورين الى الخلف » ولكنهما يصبان شقاءهما هاته المرة في جسم الآخر وقلبه الجريح . أفلا يمكن لدولة اسرائيل ان تتحقق الا بهذه العودة الساخرة للتاريخ .

لقد اقترنت هاته العودة بصنف مسيطر زاده حدة ما لقيه اليهود عند الغرب وخصوصا خلال الابادة النازية الشنيعة . وقد دفع هذا أحد المسيحيين المارونيين العرب الى ان يكتب « انني أود ان أقول ، حتى وان بدت هاته الكتابة نوعا من التشفي ، لا بد وان يكون العرب موضع حب الهي شديد كي ينقل اليهم الله العطف والعناية التي كان يضفيها على الشعب اليهودي والتي دامت عشرين قرنا » .

من الواضح ان هذا الشقي اللاهوتي ليس الا الوجه المشوه للخطيئة والاثم ، ونحن لن نساك في تحليلنا هذا المسلك : ذلك ان المقال السجالي ضربة قوية ضد الكلام المذنب . لذا فهو لا يتحقق الا في متعة غير آثمة وعند عقل غير مذنب ، اي في عملية نقد حاسمة تقضي على المعرفة التي تتولد عن الوعي الشقي . فعن الضرر علينا اذن أن نذرف الدموع الابراهيمية على الكلمة الآثمة . فمن هو اليوم يا ترى اليهودي التائه ؟ ومن هو اليتيم ؟ ومن ينضم الى الحركات التقدمية والثورية ؟ . ان الشعب الفلسطيني لا يمتلك الا ان يرفض الانفصام الصهيوني للوعي الشقي .

اذا ارجعنا الصهيونية الى مواقفها الاساسية وجدنا انها تقترح أحد اختيارين : فالصهيوني يخاطبنا (نحن القراء) : اما أن تكونوا متفقين معي، وفي هاته الحال ترفع عنكم كل شبهة أو تكونوا غير متفقين . وفي هاته الحال ، اما ان تجاهروا بعداوتكم لليهودية أو تضمووها وحينئذ ستشعرون في ثناياكم بـ « عداء لليهودية » . كيف يمكننا اذن ان نخرج عن هاته الحيرة ؟ اذا خضتم في الحديث عن دولة اسرائيل واخذتم تنتقدونها وتبدون بعض التحفظ بصدد مشروعيتها فستعرضون أنفسكم للتهمة بانكم اعداء اليهود وانكم عنصريون وضد الصيونية واسرائيل بالاضافة الى نعوت اخرى من هذا القبيل ؟ فالصهيوني يتسلح بهاته السلسلة من الصفات السلبية كي يصنف اعداءه بسهولة عجيبة . فاذا كنتم من اليسار والمعارضين للصهيونية فسيسالكم : كيف استطعتم ان تتناسوا الابادة التي قامت بها النازية ضد العنصر اليهودي؟ واذا ابديتم بعض الملاحظات حول الطابع الاستعماري المتسلط لدولة اسرائيل فان الصهيوني سينكر كل هذا وسيرد عليكم بان دولة اسرائيل لا يمكن ان تخضع الا لتحليل نظري تقوم به الصيونية ذاتها ولا يوكل قط الى الماركسية. ومجمل القول فان دولة اسرائيل تجد تبويرها بالنسبة للصهيوني في المشروعية التي تعطيها هي لنفسها . وهذا الامر لا يزعج الصهيوني قط ، بل انه يكون على استعداد لان يرفض جميع النظريات الممكنة بمجرد ما يشتم فيها أدنى « رائحة عداء لليهود » . واذا كنت يساريا مسيحيا فان الصهيوني سيسالك وما دخلك أنت ؟ فالاسبقية التي يعطيها الكتاب المقدس لليهود واصالتهم

يمنع المسيحي من ان يلقنهم الدروس .. واذا كنت يساريا فان الصهيوني سيخيبك بكل بساطة : اهتم بالثورة داخل بلدك .

اما اذا كنت عربيا فان كلامك لن يعني بالنسبة اليه اي شيء . واذا كنت فلسطينيا ؟ فيما يتعلق بهاته النقطة وخصوصا اذا اخذنا بعين الاعتبار ما كتبه (مسراهي) فان بامكاننا ان نتساءل عما اذا كان هناك وجود فعلي للفلسطينيين بالنسبة للصهيوني . ففي مقال منمق كتب (مسراهي) : « .. عرب العالم الاسلامي بأكمله دون أن يكونوا اسرائيليين او اردنيين ، او فلسطينيين كما يقولون » افترض ان (مسراهي) يأخذ هنا الامر مأخذ الجد وهو يرى ان الهوية الفلسطينية ، والشعب الفلسطيني ليسا الا وهمين من ابداع العرب لمضايقة جيرانهم . كل هذا يجعلني على استعداد لان اعتقد اننا نعيش حلما مزعجا .

لا يهم الصهيوني الا أن يبين ما لايديولوجيته من امتياز نظري خاص : فاذا كانت هناك نظرية ترفض المسلمات الصهيونية فلانها تنطوي على خطيئة عظمى وتضمر « مرارة عداء لليهود » فحتى (سارتر) الذي عودنا قدرة على الجدال فريدة من نوعها ـ يحتار هنا ويتحول من مجادل الى (طاوى) مرتجل ، ما دام يسلم في الوقت ذاته بالقضية ونقيضها . لكنه طاوي غير مقتدر ، لانه يعجز عن أن يعبر عن التناقض الذي يكمن في موقفه الا في تمزق لا يمكن تجاوزه : فهنا أيضا تجد الوعي الشقي وهو الذي يجعل (سارتر) يذرف الدموع ، دون ان يستطيع وقفها عن طريق جدله المبهور . ها هنا أيضا لا نكاد نصدق أنفسنا ، وسنعود في الوقت المناسب للحديث عن ضعف هاته الدموع الشقية . ولكنني اقول هذا مع التواضع الشديد لان عالمنا قد اصبح في جزء منه سارتريا ونحن مدينون لسارتر بطريقة معينة في حث الحياة .

لنسلم الآن بان الخصمين يتجادلان دون مواجهة صريحة . ولنستحضر مفاهيم الاصل والمكان المختار ، كما حللها واحد من اكثر الملفات جدية حول هاته المسألة : يتعلق الامر بالملف الذي خصصته مجلة **الازمنة الحديثة** قبل يونيو 1967 ، والذي لم يظهر الا بعد هذا التاريخ بالرغم مما أبداه المساهمون العرب من رغبة مستعجلة في سحب مقالاتهم . فقد اوقفت الحرب الحوار الذي كان قد بدأ على هذا النحو . بيد أن **الازمنة الحديثة** قد بادرت الى النشر ، وخيرا فعلت . يقدم لنا هذا الملف تشويها متهكما . كما لو ان الخصوم (واعني هنا المثقفين الذين ساهموا في هذا الملف) وعيا منهم بالذعر ، قد اقتصروا على تسليم كلامهم لعنف الحرب .

سنتعرض اذن ، وفقا لما اخترناه من مواضيع ، **للمقالات الصهيونية** التي ساهم بها (بارنير) و (فيربلوفسكي) و (مسراهي) . لكي نقترب

من فهم هذا الصراع ينبغي أن نميز بين تصورين لاسرائيل : فهناك اسرائيل الخرافية الوهمية ، ثم اسرائيل التاريخية ، بحيث تدعى هاته الثانية اقامة مشروعيتها على الاولى ، ما دام نقل الذنب واسقاطه على العرب بعد عملية الابادة النازية لا يكفي وحده لان يبرر ابعاد الفلسطينيين عن وطنهم . فخلق دولة يشكل بالنسبة لليهود ، كما يعني بالنسبة لنا ، حدثا لا يمكن ان ننكر طابعه الايجابي . فالامر يتعلق بارادة قوة تريد ان تتحرر من الشقاء والشعور بالذنب وبالتالي الخروج « عن حدود الدائرة اليهودية » (كافكا). فمن يستطيع اذن ان ينكر هذا الجانب الايجابي المبدئي ؟ وعلى الذين يعيبون على اسرائيل تأسيسها المصطنع يرد (بارنير) عن طيبة وحسن نية : « هل يمكن ان نقول ان هاته دولة مصطنعة ، فهي توجد على مسافة أربع ساعات جوا من باريس ، ولها اقتصادها وجيشها ولغتها وطبقتها العاملة وسفاراتها في الاتحاد السوفييتي وفي فرنسا وفي امريكا (ص. 416) . لا شيء أصدق من هذا وباستطاعة أي منا أن يتأكد من كل هاته الامور . فهاته الدولة تتمتع بوجود مثل باقي الدول الاخرى وما علينا نريد بالاضافة الى ذلك ؟ فهل ينبغي علينا أن ننكر لاي هويته الوطنية ؟ ولكن هل يمكن ان نقبل في الوقت ذاته ان يكون هذا البحث عن الاصالة سببا في القضاء على شعب آخر ؟ فعلى اي اساس تقوم اذن هاته المشروعية المزدوجة ؟ ذلك ان الشعب اليهودي ، كما يؤكد (بارنير) هو أيضا شعب يتجاوز التاريخ ، وهو يتمتع « بحرمة » يهودية وهذا هو ما نطلق عليه اسرائيل الوهمية وسنرجع الى هاته النقطة فيما بعد .

وعندما نفضح الاساس الاستعماري المسيطر لهاته المشروعية فان بارنير يرد متعجبا : « ولكن أين المستعمرون » (ص 416) اينهم ؟ وأين عساهم يكونون ؟ ان الوعي الشقي يظهر قدرة كبيرة على التجاهل ، تجاهل الذات وتجاهل الآخر . ذلك ان الازدواجية التي كانت تكمن في البداية في الوعي الشقي قد انعكست ، فالصهيوني عندما ينزع من الفلسطينيين ممتلكاتهم يضفي عليهم خطيئته وشقاءه وهو يعتقد ان بامكان الانتساب الى الارض ـ واعني التعلق الصوفي بارض الآباء ـ ان يخلص بالفعل من انقسام الوعي والخطيئة والذنب ، فاين يمكن ان يوجد الفلسطيني اذن ـ الفلسطيني الذي لا يعمل الا على رفض الشقاء المنقول ـ لا يمكن ان يوجد سوى في ذات الصهيوني وبالقرب منها . بيد أن الصهيوني يريد ان يقضي عليه سواء داخل الذات أو خارجها . فليس من الغريب اذن أن يؤدي به الامر الى الغائه التام. أو بالاحرى فهو يوهم ، في انتظار هذا الالغاء ، بانه لا يراه . وخلال هاته المهمة يسلط عليه حربا مسترسلة تنكل به ، ويوجه اليه « رشاشة الصفع » على حد تعبير الشاعر (ميشو) . فيقال لنا بأنه فيما سبق ، وقبل وجود

دولة اسرائيل ، كان الفلسطيني يحيا تائها في صحراء من الاحجار . وكان ينام نومة ذلك الذي يقول عنه (ميشو) : « من على الفراش لا تهدي اليه اى كرسي » . أما الآن وقد غزي البلد و « اعيد بناؤه » أين موضع الفلسطيني ؟ عبثا أحاول ان أجد في هاته الدراسات اثرا قويا من شانه ان يقنعني ان هذا الخروج عن دائرة الوعي الشقي قد يستبعد الشراسة نحو الآخر ومحاولة القضاء عليه . ان الحرب المعلنة ضد الآخر المنفي تصبح نظاما من الشراسة يغلفه سوء الطوية ويبرره تصوف معكوس . اجدني اذن مضطرا لان استخلص بان الوعي الشقي لا يمكنه ان يتجاوز بسهولة عن طريق تكوين دولة . فكثافته الانطلوجية ، والآلام التي ولدها خلال آلاف السنين ، تتغذى على خطيئة الحياة كانها « آلة تتمتع بالرغبة » . يقول نيتشه : « ربما لم يكن هناك شيء أكثر فظاعة ولا ازعاجا فيما قبل تاريخ الانسان ، من الآلة المتذكرة حيث نضع على شيء ما قطعة حديد متوهج كي يعلق بالذاكرة . اذ لا يعلق بالذاكرة الا ما لا ينفك عن التعذيب» فعندما ترسم ذكرى المنفى والتشتت ، وذكرى الابادة النازية الدائرة الصهيونية فانها تخلف على جسم الفلسطيني الالم وينقله اليه.

لا بد وأن يكون هناك من يشارك الصهيوني تاريخ شقائه : وعلى هذا النحو تتاح للغرب الفرصة لان يكفر عن ذنبه ويرغم الفلسطينيين على أن يتقبلوا الميثاق الذي عقد منذ آلاف السنين بين اليهود والههم. هذا الفاسطيني الذي عقد هو بدوره الميثاق مع الهة أخرى وديانات أخرى وآلام اخرى ، والذى خطرت له الفكرة اللعينة بأن يختار وطنا وأرضا قطنها منذ ثلاثة عشر قرنا او يزيد . لكن الصهيوني سيرد بأن هاته لم تكن الا مجرد فترة فراغ .

لنعد الى ما يقوله (بارنير) ولنستعرض الحجج التي يدلى بها . فهو يدخل مع سارتر في نوع من الجدال ، ويحاول ان يبين ان اليهودي كان دوما يمتلك « تاريخا (وهو تاريخ حفظ الذات من كل اضطهاد) وامة يجمعها الايمان (بالخلود والخلاص النهائي) وتربطها المصالح (تضامن اليهود ضد كل الاطماع والمصائب » (ص 423) . يستعرض (بارنير) هاته الحجج انطلاقا مما يطلق عليه التحدى والتخلي . وهو ينظر الى التاريخ كما لو كان حركة جلزونية ما دام التحدي (اى التاكيد على الفوارق) يولد تخلي الاخر . هذا التخلي الذي يقوى بدوره التحدى وهكذا دواليك . فعند ما يعطى (بارنير) الاسبقية للتخلي على التحدى فهو يخرج عن دائرة الجرم . وهو لا يقتصر على ان يلقى مسؤولية الخطأ على الآخر ويثبت التحدي كموقف ايجابي . ويرى انه ارادة قوة أصيلة ، وينظر الى التاريخ العام للوعي اليهودي كما لو كان حركة خلاص ذاتي يتم في لحظتين . هذا التاريخ ـ كما تدعي الصهيونية ـ يؤسس « حرمة يهودية » من شأنها أن تعمر بصفة نهائية ارض فلسطين

فتملأ فراغها المدقع . انه تاريخ التحدي والتخلي . وما من شك في ان اليهودية تتوفر على قوة على الانبهار استطاعت ان تلهم المشايعين لها قوة لا مثيل لها . بهذا المعنى فان اليهودية تظل بالنسبة لنا لغزا واختلافا يبعثنا على الاعجاب والاثارة في الوقت ذاته . وكما نعلم فهي مثال نادر عن الايمان الجذري والثوري . فعندما كان الميثاق الالهي يسمح للتفرقة بان يلتئم شملها حول اسرائيل من صنع الوهم وحول عبرها المقدسة ، فانه كان يحكم على الهوية الاصلية وعلى الوعي الشقي بالتساؤل الدائم حول المنفى الذاتي واختلافه المحفوظ ، اختلافه الانطولوجي المتجاوز للتاريخ . ولكن ، مع حلول الدولة الاسرائيلية ، وحينما أصبحت الخرافة علامة على تاريخ عنيف يقضي على الآخر فان الايديولوجية الصهيونية وجدت نفسها عاجزة عن أن تفسر بشكل معقول ومضبوط هاته الاستعاضة عن اسرائيل . اللهم باللجوء الى الرؤية الخرافية والاستدلال الذي يحصل الحاصل . يقول (جول اسحاق : « فلولا هذا الايمان الذي يستبعد الآخر لا تكون هناك تفرقة ، ولولا التفرقة لا يمكن الاستمرار في الوجود ولولا هذا الاستمرار فلا بقاء لاسرائيل » (اورده بارنير). ان الصهيونية ــ كايديولوجية سياسية ــ تقوم على اليهودية مدعية في ذات الوقت ان القصص التي يرويها الكتاب المقدس تعكس الواقع كما هو . وهكذا يصبح الرمز الديني علامة على العنف النيوي . لذا فان الصهيونية مرآة تجعل الشعب الاسرائيلي ، الذي نحترمه ونجله ككل شعب ــ يأمل في تحقيق التصالح الوهمي بين اسرائيل الاسطورية واسرائيل التاريخية .

كيف يبرر بارنير هاته العودة الى الارض الموعودة ؟ لنورد بعض العبارات الواضحة أشد الوضوح ، والتي تصف أرض فلسطين قبل الاحتلال الصهيوني : « فالبلد قد اقامت غاباته وأصبح جافا بدون ماء ، يبعث تخلفه على اليأس . فمساحات شاسعة بقيت دون استغلال وهي في حوزة ملاكين اقطاعيين لا يولونها أدنى اهتمام . اكتسحتها حمى الملاريا . فاذا استثنينا بعض خيام البدو المتناثرة هنا وهناك فاننا نستطيع ان نقول ان هاته الاراضي غير عامرة وهي بالتالي قابلة للاستعمال » (ص 453) ان هاته الاشارة الى بعض الخيام المتناثرة لم تستطع أن تخفي بما فيه الكفاية سوء النية الذي يضمره (بارنير) . فهل يعقل ان ينكر الانسان الواقع الى هذا الحد . وبالاضافة الى هذا فان الصهيونية ترى ان دولة اسرائيل ليست مجرد خلاص بالنسبة لهذا الشعب المتشتت ، بل انها خلاص العرب والعالم أجمع . فالصهيونية من ابداع الحضارة شأنها شأن ما كان عليه الاستعمار . اما فيما يتعلق بمستقبل الفلسطينيين فان (بارنير) يرتئي انهم سينصهرون داخل فيدرالية تضم بعض شعوب الشرق الاوسط . يقول : « وعندما يحل مشكل

اللاجئين العرب في اطار فيدرالية بانصهارهم الجزئي في البلدان العربية واستقرارهم بها ، بالاضافة الى المساهمة المادية والتقنية لاسرائيل ، فان التعاون الاسرائيلي العربي سيجد ميدانا خصبا للنمو » (ص 347) لا يخفى علينا هنا مدى التلاعب بالكلمات . فبارنير يصهر الشعب الفلسطيني بان ينزع عنه اسمه الخاص . فهو لا يتكلم بتاتا عن الشعب الفلسطيني ولا وجود عنده الا **للاجئين** . ففيما قبل كانت فلسطين مجموعة من الخيام المتناثرة في الصحراء . اما الآن فهي مجموعة من خيام اللاجئين . وفيما بعد ، يتكلم عن اللاجئين العرب لا عن الفلسطينيين . هل يسمح هذا الانكار المزدوج بتأسيس فيدرالية بين شعوب الشرق الاوسط . وهكذا فنحن نجد انفسنا دوما أمام نفس القلب والابدال الساخرين . فالصيونية تصر على اخفاء الآخر كي تخرج من المنفى الذي توجد به . حتى ولو أدى بها الامر الى ان تمحو وجه الفلسطينيين وتنزع عنهم اسمهم الخاص . انها تصر على ان تلقى مسؤولية الخطأ على الآخر ليقضي على شقائه . هذا بالرغم من ان (بارنير) يضطر الى ان يعترف « بان الامر يتعلق بمأساة وككل مأساة فان المتنازعين يكونان محقين ، فالعرب على حق في ان يقولوا انهم في فلسطين ومنذ ثلاثة عشر قرنا ، ولن ابلد بلدهم ، واليهود كذلك لا يخطئون الصواب عندما يذكرون بانهم كانوا قد استقروا قرب ضفاف نهر الاردن منذ أربعين قرنا ، وان البلد كان وما يزال أرضهم الموعودة »(ص 451) . وعلى هذا النحو تعطى الاسبقية للحق **الطبيعي** على الحق **التاريخي** وينتصر الاصل على الفوارق ، والمشروعية الرمزية على منطق التاريخ .

لنلخط خلاصة موجزة لهذا الجزء من عرضنا . ان الادعاء الصهيوني بالقضاء على الشعب الفلسطيني ، ونزع أرضه لا يمكنه ان يقوم بشكل معقول على مشروعية تاريخية ، فمفارقة الايمان والوعي الشقي هي التي تستطيع وحدها ان تفسر هاته الرغبة في السيطرة . فهل يكون من قبيل الجد ان نعتمد السلالة الوهمية للارض كحجة حاسمة . اذ في هاته الحال ، كما قيل مرارا ، ينبغي اعادة التنظيم الجغرافي للعالم بدلالة الاصل والوعود الالهية التي ليست الا وعودا رمزية أقرب الى العبرة . اللهم ان شئنا ان نعتبر اننا في عهد الفتوحات حيث تكون الحرب والرمز أمرين يبرر بعضهما الآخر . ان دولة اسرائيل « تعتمد منهجا تأميحيا » كما يقول مغنيان يساريان ـ كما تلميح ينعكس على ذاته . فلشدة ما يتجاهل الآخر فانه ينتهي بان يتجاهل ذاته .

لنعرض الآن لمقالة (زوي فربلوفسكي) **اسرائيل وارتز اسرائيل** . ان

قيمة هاته المقالة تكمن في انها تعتنق نزعة صهيونية اصيلة وتحاول في الوقت ذاته أن تجد لها تبريرات في العلوم الاجتماعية المعاصرة . ونتيجة ذلك هي التشويش في كل امرة : فاحيانا ينقل فربلو فسكي المفاهيم التقليدية كما هي في الكتاب المقدس الى حديث علمي في ظاهره . واحيانا أخرى يعتمد بنوع من التعسف على الرمز الديني كي يغلف التصورات (العلمية) . وبهاته الكيفية فانه يفسر التقاليد عن طريق التقاليد وذلك بعد لف ودوران . واذا ما اردنا ان نقتنع بكل هذا فينبغي أن نتسلح بشيء غير قليل من التجاهل، فعندما يستعمل (فربلوفسكي) مفهوم الاختلاف ، وهو مفهوم اساسي عوض مفهوم الاختيار «ينبغي أن نأخذ مفهوم الاختيار على أنه اختلاف أكثر منه تفوقا» ص 376)، فانه لا يجد صعوبة في ان يلفق في الصفحة ذاتها هاته العبارة المفارقة : « اذا كان هناك شعب مختار ، فهناك أيضا أرض مختارة موعودة » أو هاته : ان هذا الشعب (اليهودي) لا يمكنه ان يحقق ذاته بما فيه الكفاية الا « عن طريق اتحاد اقنومي مع الارض » . أوحينما يحاول فيما بعد أن يعيد تأويل التوراة : « ان التاريخ يتم بين الخليقة فان اله اسرائيل هو اله الاختيار لانه خالق الكون » (379) وهكذا يتخلص من مفهوم الاختلاف والفوارق ليعود الى المصادر والى هوية حمقاء . فعوضا عن تحليل علاقة الذات بالآخر ، وتحليل جدل الفوارق بين الثقافات ، يستعاض عن هذا باللجوء الى مفاهيم الذاتية والاصل والاختيار .

اما (جاك دريدا) الذي يتكلم عن معرفة بالامور فهو يكتب بصدد (يابيس) : « ولكن الذاتية عند اليهودي قد لا يكون لها وجود ، فربما كان اليهودي هو الاسم الآخر لهاته الاستحالة » لا يريد (دريدا) أن يخلط بين الامور عندما يجادل . وسنرجع لهاته النقط في حينها . وما نريد ان نلمح اليه هنا هو ان الصهيونية بما انها عاجزة عن استيعاب جيد لمفهوم الفوارق فهي « أسطورة متألمة » (دريدا) يعميها اختفاء وجه الهها (يافيه) . وتلك هي المفارقة التي يعاني منها الوعي الشقي ، فهو لا يقوم الا على الايمان الذي لا يكون قابلا بطبيعته للتفسير ، سواء أكان ايمانا ضعيفا أو قويا .

وحينئذ كيف نفهم ما يقوله (فيربلوفسكي) : « ان ما شكل أحد أسباب شقاء الصهيونية هو انها لم تحقق مراميها في وقت لم تكن فيه القوميات العربية قد تطورت بعد (أو على الاصح في وقت لم ينم فيه بعد وعي القومية العربية نحو فلسطين) (ص 374) . فما يشكل أحد عناصر شقاء الصهيونية هو النهضة العربية واقصد حدثا من بين الاحداث التي عرفها التاريخ الفعلي . والعنصر الآخر في الشقاء هو الفلسطينيون بطبيعة الحال . انهما اذن قوميتان تواجدتا خلال القرن التاسع عشر وكانتا ثمرتين للتاريخ جاءتا كرد فعل ضد

طغيان الغرب . هذا مع فارق اساسي وهو ان الصهيونية ظاهرة غربية تمت داخل أسوار الغرب ، بينما نشأت القومية العربية خارج تلك الاسوار كرد فعل ايجابي ضد الاستعمار والامبريالية . ان شقاء الصهيونية كما يرتئي (فربلوفسكي) يكمن في انها لم تتحين الفرصة حينما كان العرب ما زالوا يغطون في النوم وقد اضعفهم الاستعمار والبنيات الاقطاعية اللاهوتية الداخلية . وفي تلك الحال ما كانت الصهيونية ستبدو الا استبدالا مشروعا لاستعمار بآخر . لقد ضيعت الصهيونية اذن الفرصة في ان تكون الوليد المباشر للامبريالية ، الشيء الذي لم يمنعها مع ذلك من ان تتبنى حركة الطرد والتوسع الاستعماريين . فاذا ما سايرنا تفكير (فربلوفسكي) فلا يكون على الصهيونية حتى ان تبرر غزوها لفلسطين . ذلك ان مشروعية هذا العمل ستكون قد تحققت بما قام به الاستعمار فيما قبل . وما دامت جميع الامم قد تولدت بهاته الكيفية فلن يكون هناك سبب معقول للارتياب في هذا العمل . وعلى العموم فان هذا العمل سيخول الصهيونية أن تساير منطق العقل الشمولي . لذا فهي مستعدة لتكمل ما يتطلبه الكتاب المقدس والاستعمار ، أن تشوه التاريخ ، ومأساتها تكمن في انها لا تفهم فهما جيدا جدل الهوية الوطنية والفوارق الكامنة في الوعي اليهودي . فهل بامكاننا أن نشترط هذا على الصهيونية وحدها ؟ طبعا ، لا . بيد أن الفوارق في حالة الصهيونية سرعان ما تستدرك عن طريق ايديواوجية مغلوطة ضالة لا تدرك ذاتها ولا مدى بعدها عن الآخر .

ملاحظة :

ـ هذا النص جزء من كتاب يحمل عنوان « الوعي الشقي » ، سيصدر ضمن الاعمال الفكرية لعبد الكبير الخطيبي باللغة العربية ، نقل هذا الكتاب الى العربية عبد السلام بنعبد العالي .